عبد الهادي الفضلي

لاخال ان الباحث الذي يحاول تقصي حقائق التاريخ الاسلامي وحقائق التاريخ العربي ، هو فى غنى عن الرجوع الى القرآن الكريم او الحديث النبوي او كتاب (نهج البلاغة) ، الكتاب الذي ضم بين دفتيه كلام الامام علي بن ابي طالب (ع) .

ذلك ان هذه المصادر الثلاثة اولى الوثائق التاريخية للامة العربية والحضارة الاسلامية واقدمها على الاطلاق .

والاخير منها ـ اعني نهج البلاغة ـ قد يكون احفلها واوسعها استعراضا لتاريخ البعثة الشريفة .

ومن هنا . ولسببين آخرين اخترت الحديث عن (البعثة في نهج البلاغة) .

والسببان الآخران هما :

١ ـ رغبتي في أن اضيف حلقة ثانية في دراساتي عن(نهج البلاغة) الى الحلقة الاولى التي درست فيها (الامثال في نهج البلاغة) ، آملا ان اوفق لوصلها بحلقات اخر .

٢ ـ ان الامام (ع) كان صنو النبي (ص) وقرينه منذ نعومة اظفار الامام (ع) الى حين انتقال النبي (ص) الى الرفيق الاعلى .

وطبيعي ان دراسة البعثة من أقوال الامام (ع) ، وهو بتلكم المنزلة من النبي (ص) تلقي الاضواء المشرقة على الواقع التاريخي للبعثة وذاتها وعن وعي .

ولعل من الافضل ان اترك تصوير العلاقة الوثيقة بين النبي (ص) والامام (ع) والتي هي ـ في حقيقتها ـ واقع حياة البعثة . الى (نهج البلاغة) ايضا .

يقول الامام (ع) : « وقد علمتم موضعي من رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة . وضعني في حجره ، وانا ولد يضمني الى صدره ، ويكنفني في فراشه . ويمسني جسده ، ويشمني عرفه ، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه . وما وجد لي كذبة في قول ، ولا خطلة في فعل » [1] .

ولا احسبني بحاجة لان اشير الى ان اعتماد (نهج البلاغة) مصدرا يعني الاستغناء عن دعم ما يذكره من الوقائع التاريخية بالرجوع الى ما سواه من مصادر تاريخية تأخرت عن عصر الامام (ع) ، لا سيما وان مصادرنا التاريخية القديمة تعتمد الرواية والحديث عمن شهد الوقعة وشاهدها ، .. وذلك لان نهج البلاغة فيما يذكره من تاريخ تتجه مباشرة لشهود الامام (ع) ومشاهدته القضايا دون ان تتحمل سماعا وبخاصة بعد وضوح ثبوت صدور ما فيه عن الامام (ع) ونصه .

وحديث الامام (ع) عن البعثة الشريفة يدور حول نقاط ثلاث :

١ ـ وضع الناس قبل البعثة .

٢ ـ الغاية من البعثة .

٣ ـ زمن البعثة .

---

(١) الخطبة القاصعة .

٤ ـ بدء نزول الوحي .

٥ ـ اداء النبي (ص) لمسؤولية تبليغ الرسالة اداء كاملا .

٦ ـ التطور الذي حدث للناس بسبب البعثة .

ان الامام (ع) حينما يحدثنا عن وضع الناس قبل البعثة يقسمه الى مجالين : ـ

* * *

الاول : الوضع العام للعالم ـ وهو مجال الدعوة الاسلامية .

الثاني : الوضع العام للعرب ـ وهو منطلق الدعوة الاسلامية .

ويصور ـ عليه السلام ـ وضع الناس في المجال الاول قبل البعثة بأقواله التالية :

١ ـ « واهل الارض يومئذ ملل متفرقة ، واهواء منتشرة، وطوائف مشتتة، بين مشبه لله بخلقه ، وملحد في اسمه ، او مشير الى غيره » (٢).

٢ ـ « والناس في فتن انجذم فيها حبل الدين ، وتزعزعت سواري اليقين ، واختلف النجر . وتشتت الامر ، وضاق المخرج ، وعمي المصدر فالهدى خامل ، والعمى شامل ، عصي الرحمن ، ونصر الشيطان ، وخذل الايمان ، فانهارت دعائمه ، وتنكرت معالمه ، ودرست سبله ، وعفت شركه ، اطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ، ووردوا مناهله ، بهم سارت اعلامه ، وقام لواؤه ، في فتن داستهم بأخفافها ، ووطأتهم باظلافها ، وقامت على سنابكها ، فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون ، في خير دار ، وشر جيران ، نومهم سهاد ، وكحلهم دموع ، بارض عالمها

(٢) نهج البلاغة ، شرح الامام محمد عبده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة الاستقامة بمصر ، ١٩ / ١ .

ملجم ، وجاهلها مكرم » [٣] .

٣ ـ « ارسله على حين فترة من الرسل . وطول هجعة من الامم ، واعتزام من الفتن ، وانتشار من الامور ، وتلظ من الحروب ، والدنيا كاسفة النور . ظاهرة الغرور ، على حين اصفرار من ورقها ، واياس من ثمرها ، واغورار من مائها . قد درست منار الهدى ، وظهرت اعلام الردى ، فهي متجهمة لاهلها ، عابسة في وجه طالبها ، ثمرها الفتنة ، وطعامها الجيفة ، وشعارها الخوف . ودثارها السيف » [٤] .

٤ ـ « بعثه والناس ضلال في حيرة ، وخابطون في فتنة ، قد استهوتهم الاهواء ، واستزلتهم الكبرياء . واستخفتهم الجاهلية الجهلاء ، حيارى في زلزال من الامر ، وبلاء من الجهل » [٥] .

٥ ـ « أضاءت به البلاد بعد الضلالة المظلمة . والجهالة الغالبة ، والجفوة الجافية ، والناس يستحلون الحريم ، ويستذلون الكريم ، يحيون على فترة ، ويموتون على كفرة » [٦] .

٦ ـ « ثم ان الله بعث محمدا ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بالحق حين دنا من الدنيا الانقطاع ، واقبل من الآخرة الاطلاع ، واظلمت بهجتها بعد اشراق ، وقامت باهلها على ساق ، وخشن منها نهاد ، وأزف منها قياد ، في انقطاع من مدتها ، واقتراب من اشراطها ، وتصرم من أهلها ، وانفصام من حلقتها ، وانتشار من سببها ، وعفاء من اعلامها ، وتكشف من عوراتها ، وقصر من طولها » [٧] .

وهي ـ أعني هذه النصوص الكريمة ـ تشير الى الحقائق التالية :

---

(٣) ٢٣ و ٢٤ / ١ .

(٤) ١٥٥ و ١٥٦ / ١ .

(٥) ١٨٦ / ١ .

(٦) ٤٩ / ٢ .

(٧) ٢٠١ و ٢٠٢ / ٢ .

١ ــ التأخر العام الذي كان يعم الامم من قبل البعثة حيث كانت تعيش في حيرة وضلة .

٢ ــ التخلف الاجتماعي الذي تمثل في غلبة الفتن وتلظي الحروب وسيطرة الظلم .

٣ ــ التخلف الحضاري حيث ساد الجهل ، وشاع الانقياد وراء الهوى .

٤ ــ التأخر الديني ، وذلك بدروس منار الهدى وظهور اعلام الردى ، وتفشي الجاهلية الجهلاء .

واما في المجال الثاني فيحدثنا الامام (ع) عن وضع العرب بما يأتي:

١ ــ « ان الله بعث محمدا (ص) نذيرا للعالمين وأمينا على التنزيل وانتم معشر العرب على شر دين ، وفي شر دار ، منيخون بين حجارة خشن ، وحياة صم ، تشربون الكدر ، وتأكلون الجشب ، وتسفكون دماءكم ، وتقطعون ارحامكم ، الاصنام فيكم منصوبة ، والاثام بكم معصوبة » (٨) .

٢ ــ « ان الله بعث محمدا ــ صلى الله عليه وآله ــ وليس احد من العرب يقرأ كتابا ولا يدعي نبوة ولا وحيا » (٩) .

وينطوي هذان النصان على الاشارة الى :

١ ــ التخلف الثقافي الذي مني به العرب قبل البعثة حيث عمتهم الامية التي كانت ما نعهم من قراءة الكتب والافادة منها ، وربما عاد ذلك الى طبيعة حياتهم حيث كان معظمهم بدوا رحلا . ومن هنا لم يعرف لهم في هذه الفترة غير الشعر وقليل من النثر . اما التعليم والتأليف وتداول الكتب وجلبها فلم يحدث منه شيء .

---

(٨) ١ / ٦٢٠ . (٩) ١ / ١٩٩

٢ ــ التخلف الاجتماعي متمثلا بسفك الدمـاء والقطيعة وتفشي الظلم واللهو ، كما في الوأد الذي عرفت به بعض قبائل العرب، والعضل وعدم توريث النساء والاطفال ، وكما في شيوع تعاطي الخمرة واستباحة النساء وانتشار القمار ، وفي ايامهم (حروبهم) التي دونها التاريخ ، من ابرز ظواهر تخلفهم الاجتماعي .

٣ ــ التخلف الاقتصادي ، لانهم كانوا يعيشون في بيئة جغرافية متأخرة طبيعيا لا تؤدي الزرع ولاتديم الري .

٤ ــ التأخر الديني ، فقد كانوا على شر دين من عبادة الاصنام والاعتقاد بالاوثان التي تحولت بسبب كثرتها الى مادة خصبة يؤلف فيها (ابن الكلبي) كتابه المعروف (الاصنام) .

(٢) الغايـة من البعثة :

١ ــ « الى ان بعث الله سبحانه محمدا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لانجاز عدته وتمام نبوته » [١٠] .

٢ ــ « واشهد ان محمدا عبده ورسوله ارسله بالدين المشهور ، والعلم المأثور ، والكتاب المسطور ، والنور الساطع ، والضياء اللامع ، والامر الصادع ، ازاحة للشبهات . واحتجـاجا بالبينات ، وتحـذيرا بالآيات ، وتخويفا بالمثلات » [١١] .

٣ ــ « حتى بعث الله محمدا ــ صلى الله عليه وآلـه ــ شهيدا وبشيرا ونذيرا » [١٢] .

٤ ــ « فهو امينك المأمون ، وشهيد يوم الدين ، وبعيثك نعمـة ، ورسولك بالحق رحمة » [١٣] .

---

(١٠) ١٨ / ١ .
(١١) ٢٢ / ١ .
(١٢) ٢٠٠ / ١ .
(١٣) ٢٠٣ و ٢٠٤ / ١ .

٥ ــ « ارسله داعيا الى الحق . وشاهدا على الخلق » [١٤] .

٦ ــ « فبعث محمدا ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بالحق ليخرج عباده من عبادة الاوثان الى عبادته ، ومن طاعة الشيطان الى طاعته ، بقرآن قد بينه واحكمه . ليعلم العباد ربهم اذ جهلوه ، وليقروا به اذ جحدوه ، وليثبتوه بعد اذ انكروه » [١٥] .

٧ ــ « وبشير رحمته . ونذير نقمته » [١٦] .

٨ ــ « واشهد ان محمدا عبده ورسوله المجتبي من خلائقه ، والمقام لشرح حقائقه . والمختص بمقائل كراماته والمصطفى لكرائم رسالاته » [١٧] .

٩ ــ « ارسله بوجوب الحجج . وظهور الفلج . وايضاح المنهج » [١٨] .

١٠ ــ « فان الله سبحانه بعث محمدا ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ نذيرا للعالمين . ومهيمنا على المرسلين » [١٩] .

تلخص هذه النصوص الكريمة غاية البعثة الشريفة في الاهداف التالية :

(١) اتمام النبوة ، وختم الرسالات الالهية ، حيث قطعت البشرية مراحل نموها وبلغت درجة النضج فى حياتها العقلية ، مما اوجب ان تنزل عليها الرسالة الكاملة الخاتمة ، وان تتم وتختم النبوة .

(٢) الدعوة الى الحق ، الى توحيد الله تعالى ، الى الايمان به وحده والطاعة له وحده ليرتفع الانسان من وهدة الالحاد والشرك والعبودية للمخلوق ، الى رفعة الاعتقاد بالحق الذي يلتقي ومقتضى الواقع ، ويتمشى

---

(١٤) ١ / ٢٢٧ .
(١٥) ٤٠ و ٤١ / ٢ .
(١٦) ٢ / ١٠٤ .
(١٧) ٢ / ١١٩ .
(١٨) ٢ / ١٣٨ .
(١٩) ٣ / ١٣٠ .

شريعة الله تعالى ، الخالق لـه ، والعـالم بما يصلحه ويمنحه الحيـاة الحرة الطيبة .

(٣) البشارة بالخير والمصير السعيد لمن يهتدي بهدى الله تعالى .

(٤) النذارة بالعقوبة والمصير الشقي لمن ينحرف عن الصراط المستقيم الى اديان الارض وشرائع الانسان .

(٥) الالزام بالحجة ، ليكون الله تعالى الحجة البالغة على خلقه ، حيث بلغهم ما يهبهم سـعادة النشاتين وحسنى الدارين ، ولئلا يكون للناس على الله الحجة .

(٦) الشهادة : « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٢٠) .

(٣) ظرف البعثة :

اما ظروف البعثة النبوية وزمنها ، فتكاد تحصرها نصوص (نهج البلاغة) في حين من الزمان اطلقت عليه وصف (آخر الزمان) ووصف (الفترة الخالية من الرسل) .

ونقرأ الوصف الاول في امثال النصوص التالية :

١ ـ « ثم ان الله بعث محمدا ـ ص » بالحق حين دنا من الدنيا الانقطاع ، واقبل من الآخرة الاطلاع » (٢١) .

والوصف الثاني نقرأه في امثال قوله ـ عليه السلام ـ : « ارسله على حين فترة من الرسل » (٢٢) .

وقد اصبح هذا الوصف علما على هذه المدة بين بعثة المسيح(ع)

---

(٢٠) الآيـــة .

(٢١) ٢٠١ / ٢ .

(٢٢) ١٥٥ / ١ .

وبعثة نبينا محمد (ص) .

ويراد بالفترة من الرسل : انقطاع الرسل هذه المدة ، حيث لم يبعث الله تعالى من رسله وانبيائه احدا في اثناء هذه المدة الممتدة من بعثة عيسى الى بعثة محمد .

وربما علل ذلك بعض المؤرخين بالتمهيد لبعثة النبي محمد (ص) ليكون الناس على فارغ من الصبر في انتظار المصلح المبعوث من قبل الله تعالى .

(٤) بدء نزول الوحي :

ويصور لنا الامام (ع) بدء نزول الوحي بقوله : « ولقد كان (يعني النبي) يجاور في كل سنة بحراء فاراه ولايراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ وخديجة وانا ثالثهما ، ارى نور الوحي والرسالة ، واشم ريح النبوة.

ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقلت : يا رسول الله ، ما هذه الرنة ؟ فقال : هذا الشيطان أيس من عبادته ، انك تسمع ما اسمع ، وترى ماارى ، الا أنك لست بنبي ، ولكنك وزير ، وانك لعلى خير » (٢٣) .

(٥) جهاد النبي من اجل الدعوة :

ومما صوره الامام (ع) ـ وهو يستعرض مراحل البعثة في مناسبات ذكرها والتذكير بها ـ جهاد النبي (ص) من اجل الدعوة ، ومالاقاه لذلك من متاعب ومصاعب ، فيقول : « ونشهد ان محمدا عبده ورسوله ، خاض الى رضوان الله كل غمرة ، وتجرع فيه كل

---

(٢٣) ١٨٢ / ١ .

... وثالب عليه الاقصون ، وخلعت اليه العرب اعنتها ، وضربت لمحاربته بطون رواحلها ، حتى انزلت بساحته عدوانها من ابعد الدار واسحق المزار » (٢٤) .

(٦) قيام النبي بالمسؤولية :

ويتابع الامام (ع) سير البعثة الشريفة فيؤكد قيام النبي (ص) بمسؤولية تبليغ الرسالة الالهية اتم قيام ، وأداءه الدين الذي بعث به اداء كاملا ، فيقول :

١ ــ فساق الناس حتى بوأهم محلتهم ، وبلغهم منجاتهم ، فاستقامت قناتهم ، واطمأنت صفاتهم . (٢٥)

٢ ــ اللهم داحي المدحوات ، وداعم المسموكات ، وجابل القلوب على فطرتها شقيها وسعيدها : اجعل شرائف صلواتك ، ونوامي بركاتك على محمد عبدك ورسولك : الخاتم لما سبق ، والفاتح لما انغلق ، والمعلن الحق بالحق ، والدافع جيشات الاباطيل ، والدامغ صولات الاضاليل ، كما حمل فاضطلع ، قائما بأمرك ، مستوفزا في مرضاتك ، غير ناكل عن قدم ، ولا واه في عزم ، واعيا لوحيك ، حافظا على نفاذ امرك ، حتى اورى قبس القابس ، واضاء الطريق للخابط ، وهديت به القلوب بعد خوضات الفتن ، واقام موضحات الاعلام ، ونيرات الاحكام به (٢٦) .

٣ ــ فبالغ ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ في النصيحة ، ومضى على الطريقة ، ودعا بالحكمة والموعظة الحسنة (٢٧) .

---

(٢٤) ٢ / ١٩٠ .

(٢٥) ١ / ٧٧ .

(٢٦) ١ / ١١٦ .

(٢٧) ١ / ١٨٧ .

٤ ــ بلغ عن ربه معذرا ، ونصح لامته منذرا ، ودعا الى الجنة مبشرا [٢٨] .

٥ ــ ارسله داعيا الى الحق ، وشاهدا على الخلق ، فبلغ رسالات ربه، غير وان ولامقصر، وجاهدفي الله اعداءهغير واهن ولامعذر[٢٩].

٦ ــ ارسله على حين فترة من الرسل وتنازع من الالسن ، فقفى به الرسل ، وختم به الوحي ، فجاهد في الله المدبرين عنه ، والعادلين بـــه [٣٠] .

٧ ــ فبلغ الرسالة صادعا بها ، وحمل على المحجه دالا عليها، واقام اعلام الاهتداء ، ومنار الضياء ، وجعل امراس الاسلام متينه ، وعرى الايمان وثيقة [٣١] .

٨ ــ فصدع بالحق ، ونصح للخلق ، وهدى الى الرشد ، وامر بالقصد [٣٢] .

(٧) التطور الذي احدثته البعثة :

١ ــ « حتى تمت بنبينا محمد ــ صلى الله عليه واله وسلم ــ حجته ، وبلغ المقطع عذره ونذره » [٣٣] .

٢ ــ « قد صرفت نحوه أفئدة الابرار ، وثنيت اليه ازمة الابصار دفن به الضغائن ، واطفأ به الثوائر ، الف به اخوانا ، وفرق به اقرانا اعز به الذلة ، واذل به العزة » [٣٤] .

ونستطيع ان نلمس المعلمة البارزة في التطور الذي احدثته البعثة

---

(٢٨) ١ / ٢١٤ .
(٢٩) ١ / ٢٢٧ .
(٣٠) ٢ / ٢٢٥ .
(٣١) ٢ / ١٣٩ .
(٣٢) ٢ / ١٩٣ .
(٣٣) ١ / ١٧٧ .
(٣٤) ١ / ١٨٧ .

الشريفة من اشراقه النص الاول ، حيث تمت الحجة بمحمد (ص)وبلغ المقطع عذره ونذره ، وذلك لان الاسلام نزل عقيدة كاملة ، ونظاما للحياة شمل جميع شؤونها ، ورسم لكل متطلباتها في مختلف ظروفها واحوالها حتى تقوم الساعة ، القانون التام لكل صغيرة وكبيرة في اعمال الانسان وسلوكه، فرديا وجماعيا ، في نفسه وفي اسرته ، وللمجتمع والدولة ، للحياة كافة .

وفى النص الثاني نقرأ تلك الثورة التي غيرت حياة العرب من جاهلية بدوية مغلوبة ، الى امة قائدة ، وفر لها الاسلام وسائل الفكر والعمل ، ودفعها بزخم قوي هائل الى الرقي المستمر وبسرعة فائقة يقف عندها العقل فى حيرة عجب وذهول استغراب حينما يقارن بين حياتهم ومدة الثلاث والعشرين سنة التي مرت بها عملية التطور ، وهي تقتلع اسسا وتبني اسسا وتستاصل جذورا وتضع مكانها ، تهدم باطلا وتشيد حقا حتى نزلت الآية الخاتمة ((اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا)) .